

التربية القرآنية

إن القرآن الكريم وهو يعمل على تنقية البيئة وطهارتها من كل سلوكٍ ضال، ويمدها بالآداب والفضائل التي تصونها وتحفظها، يربط المؤمن بواجبات وتبعات لا تدع مجالاً للفراغ المهلك والعبث الضال.

وإذا كنا قد مضينا مع أسلوب التربية في الإسلام، ورأينا كيف يعمل على تهيئة التربة وانتقاء البذرة والجو الصالح لاستقبال وليدٍ يُنشأ تنشئةً إسلاميةً صحيحة. فلنمض مع القرآن لناخذ قِبَساً من نوره نرى على ضوئه أسلوب التربية الحكيم الذي يحقق أبرَّ الصفات وأكرمَ الغايات.

ونرى لزاماً علينا - في هذا الموقف - أن نسوق بعض ما قُدِّم من قصص عملي واقعي؛ لندرك كيف أنتجت التربية الصادقة نماذج من البشر علّموا الإنسانية من وحي الله ما لم تكن تعلم، وقادوها إلى نور الإيمان وطُهر اليقين.

ما أعظم القصص في القرآن وهو يعرض نماذج متعددة لمن تحسن بهم القُدوة، أو قامت فيهم العبرة، وإذا كانت التربية الحديثة تعني بتقديم القصص على لسان الطيور والحيوانات. وذلك لا يعدو في مدلوله أن يكون تنميةً لمعرفةً أو سَوْقاً لعبرةً سطحية. فإن القرآن الكريم قد سجل أكرمَ وأصدق وأروع ما يمكن أن يؤثر في النفوس ويرشد القلوب والعقول، ويفي بأنواع التربية المختلفة من عقلية وخلقية واجتماعية.

وإليك قبس من نور هذا القصص العملي في القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ (١)

(١) الشُّعْرَاءُ : ١٩٢.

مع غلة وهدهد في ملك سليمان ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ آذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١﴾

أرأيت إلى الحيلة والحذر؟ أرأيت حسن التدبير ومنطق الحكمة على لسان غلة مما أدهش سليمان نفسه ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٩﴾ لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُّ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ

بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾^(١)

وتمضي القصة تكشف عن صدق الهدهد، ووصول الكتاب، وتبادل الرسائل، وإرسال الهدايا ورَفُضِها، وظهور الحق، وتنتهي بهذا الاعتراف الكريم ﴿قَالَتْ رَبِّ

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾^(٢)

قصة الراعي اليقظ الذي يتفقد أمر رعيته مع الرعية الواعية التي تنهض وتعمل، وتنطق بالحق مُعْتَدَّةً، صادرةً عنه. قصة الجندي الواعية المخلصة مع القيادة الأوابة الحكيمة التي تزن الأمور وتطلب الدليل ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ

مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾^(٣)

قصة الإيمان المستبصر المستنير وهو يمتد بأصالته فيكشف ويضئ ويهدي ويرشد، وما أجلها عبرة أن آمنت أمة واهتدت على يد هدهد آمن برسالته وأخلص في جنديته.

فأنت ترى أن القرآن الكريم حين يقدم هذا القصص إنما يثير به كوامن النفس ودوافع العزيمة، كما يجرد الإرادة للعمل الصالح وهو يسلك بالإنسان أقوم سبيل لتحقيق الرسالة التي خُلِقَ من أجلها.

هدهد يقوم باكتشاف مخالفة لقانون الله في الأرض: (عبادة المخلوق ونسيان

(١) النمل : ٢٨-١٩ .

(٢) النمل : من الآية ٤٤ .

(٣) النمل : ٢٧ .

الخالق) ويقف موقف المعتد بالحق أمام نبي ورسول كان قد توعدّه ﴿لَأَعَذِّبَنَّهٗ

عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ (١)

ما أجمل الموقفين. موقف سليمان عليه السلام وهو يتفقد كل شيء في دولته، وموقف المهدهد وهو يعمل مخلصاً في أداء الرسالة. وما أجمل قصص القرآن كله وهو يمتزج بفطرة الإنسان فينطلق بها في ميدانها الفسيح في عزم وحزم وثقة، فترى من آيات الله - في النفس وفي الآفاق - ما تتيين معه أن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

وليس المجال هنا مجال تفصيل لقصص القرآن وما احتواد من جليل العبرة وخالص المعظة، وإنما أردنا فقط أن نُشير إلى أوجه التربية الفردية والجماعية التي حفل بها القرآن الكريم.

والحق أن كل كلمة فيه - سواء منها ما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو القصص، أو أيِّ شأن من الشؤون - إنما هو بابٌ للتربية الإنسانية على أكمل صورة وأقوم سبيل.

فهل يتجه المرءون - حيث كانوا - إلى القرآن الكريم؛ ليأخذوا منه أسس

التربية الحكيمة، يستضيئوا بنوره في كل شأن دون تقليد لأساليب الغير ووسائله ؟
نحن - بما أنعم الله علينا من كتاب وسنة نملك أسباب التربية للإنسانية جميعاً، بهذا الكتاب الكريم تخلّق خاتم الرسل عليه السلام وقد أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى نوره وهدية رأين الدنيا خير أمة أخرجت للناس. ورأت الإنسانية رجالاً كانت أعمالهم في إصلاح الأرض وآمالهم في السماء « تَوَكَّلْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » (٢)



(١) النمل : ٢١ .

(٢) رواد مالك في الموطأ .

الداعون إلى هدى والداعون إلى ضلالة

يتأثرُ الناسُ بعضهم ببعض، ويؤثر بعضهم في سلوكِ بعض، إمَّا بالأسوة الحسنة أو بالقدوة السيئة. وفيهم الجليسُ الصالح، وفيهم جليسُ السوء. وللكلمة تأثيرها وأثرها في حياة الناس. ولها عند الله وزنٌ وتقدير، فهي إمَّا أن ترفع صاحبها إن كانت من رضوان الله، أو تهوي به إن كانت من سخطِ الله. وكلُّ عملٍ طيبٍ يُقصدُ به وجهُ الله يُؤتي ثماره في حياة الناس، وهو في ذاته دعوةٌ صادقةٌ إلى الخير، يحثُّ الناسُ بأسلوبٍ علمي، ويدعوهم إلى صالح العمل بالفعل لا بالقول.

واحترامُ الداعية بالقولِ إلى الله - جَلَّ وَعَلَا - لا يتمُّ إلا إذا اقترن بعمل صالح يصدِّقه.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ (١)

والله - جَلَّ وَعَلَا - يُحذِّرُ المؤمنين وينكر عليهم أن يقولوا قولاً لا يصدِّقه فعل، أو ينسبوا لأنفسهم من الخير ما لم يكونوا قد فعلوه، أو يقرُّوا به ولا يفعلوه.

(١) فصلت : ٢٣-٢٥.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٣﴾ كَبُرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾^(١)

وقد أنكر الله على أحبار اليهود أن يأمروا الناس بالطاعة والكف عن المعصية

ولا يفعلون ذلك ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

الْكِتَابَ ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤﴾^(٢)

إن الناس يتأثرون بالأعمال وهي أدوم وأبقى.

« ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من معلم الناس ومؤدبهم »

وكلُّ عمل فاسدٍ يمتد أثره إلى المجتمع، وتحني الأمة التي تُقره أو ترضى به أثره

ونتائجه. والعايب في سفينة إن أخذ الناس على يده نجاً ونجواً جميعاً، وإن تركوه هلك

وهلكوا جميعاً.

لذا نرى رسول الله ﷺ وقد كان خلقه القرآن - بين أجر من سنَّ سنَّةً

حسنة، ووزر من سنَّ سنَّةً سيئة. وعلى الناس أن يدركوا الأثر في الحالين، وأن يروا

نتائج هذه وتلك في واقع الحياة العملية والسلوك الإنساني.

روى مسلم عن المُنْدَرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ^(٣) أَوْ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي

السُّوْفِ، عَامَّتْهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِمَا

رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِبِلَالٍ فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ،

(١) الصف : ٢، ٣.

(٢) البقرة : الآية ٤٤.

(٣) النمار جمع نمر، وهي كساء من صوف مخطط.

فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١)، والآية الأخرى التي في آخر الحشر ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(٢) تصدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ. قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصْرَةَ كَادَتْ كَفَّهُ تَعَجُّزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَتِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٣)

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ »^(٤)

أخي المسلم:

لا يمكن أن ترى حثًا على الخير أبلغ من هذا، ولا تنفيرًا من الشرِّ أشدَّ من ذلك « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ

(١) النساء : ١ .

(٢) الحشر : من الآية ١٨ .

(٣) رواد مسلم .

(٤) متفق عليه .

ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» (١)

أخي المسلم:

إن امتداد الأمة وبقاؤها يتوقف على ما فيها من خصائص وصفات. وأسباب الحياة أو الهلاك بينة أمام الناس. والله - جلّ وعلا - قد أنزل الهدى الذي يُدعى إليه وتتوقف سعادة الناس وحياتهم عليه ﴿الْمُرَادِ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ (٢)، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِّلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٧﴾ (٣)

فكل دعوة إليه - بعلم أو عمل - دعوة إلى الخير، وعلى قدر استجابة الناس أو إعراضهم يكون شأنهم ومصيرهم ﴿فَمَن آتَبَعِ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٢﴾ وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ ﴿١٢٥﴾ وَكَذَلِكَ نُجزي مَن أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٦﴾ (٤)

اللهم اجعل هوانا تبعاً لما جاء به سيدنا محمد ﷺ.

(١) رواد مسلم.

(٢) البقرة : ١، ٢.

(٣) الزمر : ٢٣.

(٤) طه : ١٢٣-١٢٧.